نظام تعدد الزوجات في الإسلام ينتشل المرأة من صقيع الترمل إلى دفء الحياة الزوجية مرة أخرى ويحيى في نفسها ميت الأمل

بينا في بحثنا السابق مدى ما يحققه نظام تعدد الزوجات في الإسلام للرجل من منافع جمة وكيف أنه يخلص النساء من شوائب الرجولة التي تعكر صفو الحياة الزوجية في كثير من البيوت خاصة هذه الأيام.

ونبين في هذا المبحث كيف أن هذا النظام لا تقتصر منافعه على الرجل وإنما تمتد لتشمل النساء أيضاً، وكيف أنه رحمة من الله تعالى بهن، بل إن منافعه للنساء تفوق منافعه للرجل بمراحل شتى، بينما يتحامل المتفرنجات عليه ويعتبرونه العدو اللدود للمرأة وهذا فهم قاصر منهن، إذ يصدر هذا الحكم من منطلق النظرة السطحية للأمور دون التعمق في بواطنها، ودون محاولة النفوذ إلى كنهها ومرماها، فهو يحيي ميت الأمل في نفوس المترملات وينتشلهن من وهدة الضياع وينقذهن من هذا الملل الكئيب الذي يخيم عليهن ومن الصقيع الرهيب إلى دفء الحياة الزوجية.

وإلا فما أكثر النساء اللاتي يموت عنهن أزواجهن بينما هن لم يزلن زهرات نضرات في مقتبل العمر وريعان الشباب، وكثيرا ما تخلف الحروب وراءها عشرات الآلاف من الشابات الأرامل حيث تحصد أرواح الرجال.

ولما كان الشأن في الشباب بشكل عام أنهم يعزفون عن التزوج من الأرامل حتى وإن كن جميلات، فإن المتنفس لهن إنما يتمثل في الزواج من المتزوجين.

ألا وإن كل امرأة عرضة لأن يموت زوجها في أية لحظة وتكون في أشد الحاجة إلى أن يتزوجها رجل آخر، حتى ولو كان متزوجاً بثلاث سواها.

فالتي تعارض نظرية التعدد اليوم، وتأبى كل الإباء أن يتزوج عليها زوجها، وترفض منطق المشاركة في الزواج إذا بها حين يتوفى عنها زوجها تكون من أول المتحمسين لنظرية التعدد هذه لضآلة الفرصة أمامها في التزوج من غير المتزوجين ووجودها بالدرجة الأولى عند المتزوجين.

ومن ثم، فإنها لو تقدم لها رجل متزوج مناسب ستقبله على الفور ودون تردد، تاركة رأيها الأول في موضوع التعدد خلفها ظهريا، وملقية به في مهب العاصفة لتذروه الرياح، لأن بقاءه يشكل عقبة كؤودا في طريق سعادتها.

حتى لو قيل لها: إنك قد اعتديت على حق زوجة هذا الرجل في قبولك الزواج منه سيكون ردها إنها لم ترتكب إثماً وإنما تزوجته على سنة الله ورسوله وهذا لا يعتبر اعتداء على حق أحد.

ولو قيل لها: ألم تكوني معارضة لنظرية التعدد بالأمس ورافضة لمنطق المشاركة في الزواج فلماذا تناقضين نفسك اليوم وتقبلين الزواج من رجل متزوج؟ فإنها لا تلبث أن تقول أنها كانت مخطئة وأن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، ولذا فهي تكفر الآن عن ذنبها في معارضة التعدد بتطبيقه عمليًا.

ولو قيل لها: إن التعدد معناه عدم استئثارك بالرجل، وعدم استحواذك عليه وأن قلبه سيكون ممزعاً بينك وبين باقي زوجاته، فإنها سوف تقول: إن هذا أفضل ألف مرة من أن تظل أرملة تعاني الوحشة والكآبة والحرمان والملل، إن المثل يقول " ضل رجل ولا ضل حيط " فيكفي أن يكون لها أى رجل يرتبط اسمها باسمه ويكفيها

منه مجرد إطلالة حتى ولو كل حين من الزمان بدلاً من أن يلازمها شبح كلمة " أرملة " إنه شبح بشع دميم، إن هذا الشبح يسبب لها متاعب لا حد لها ولا تقوى على احتمالها خاصة إذا ظل هذا الشبح يلازمها، إنه يحرض الذئاب البشرية على ملاحقتها بعيون جائعة وقحة ويدفعهم إلى تتبع خطواتها ونصب الكمائن في طريقها ظناً منهم أنها قد غدت فريسة سهلة بعد ترملها.

ولا تقف متاعبها عند هذا الحد، وإنما نظرات الشك والارتياب التي تنبعث من عيون كل المحيطين بها هي التي تؤرقها وتزعجها، أنهم يعدون كل حركاتها وسكناتها، ويؤولون كل كلمة تنطقها تأويلاً سيئاً، وهاهم يتناولون سيرتها بألسنة حداد تخدش سمعتها وتجرح كرامتها.

أنها قد سئمت هذا الجو الكالح المسموم الذي يحيط بها ويكاد يخنقها، لأن كل من حولها إما طامع أو مرتاب أو شامت فيها أو متخوف منها أو مشفق عليها، وهي تكره كل ذلك حتى نظرات الشفقة من أهلها والمخلصين لها أصبحت تكرهها لأنها تشعرها أكثر وأكثر بمدى فداحة جرحها، إنها تريد أن تكون نظرات الناس إليها وتصرفاتهم نحوها عادية حتى لا تشعر بأنها كائن غريب في المجتمع يختلف عن كل من فيه ولكن أنى لها ذلك؟ إنها كمن يتوقع صدور الحكم عليه بالإعدام في أية لحظة، وهل الحكم بالإعدام أقسى على نفس الشريف من تعريض سمعته للخطر؟

فيا ترى إذا تقدم رجل متزوج كفء وطلب الزواج من مثل هذه الأرملة هل يمكن أن تتردد لحظة في قبوله؟ لا شك إن قبولها الزواج منه سيعصمها من هذه الذئاب البشرية التي تلاحقها، وسيصون شرفها وسمعتها وسينقذها من هذا الجو الموبوء الذي يحيط بها،

وسيكف عنها نظرات الاتهام والشك وسيقطع كل الألسنة التي عرضت بها وكل الألسنة التي كانت متحفزة بالتعريض بها.

إن هذا الرجل المتزوج الذي قدم يده لتلك الأرملة بهدف الزواج بها إنما هو في الحقيقة قد ألقى إليها بطوق النجاة في خضم الخطوب والمحن وقد أشرفت على الغرق، فأي غريق في الدنيا يمكن أن يدع طوق النجاة ويسلم نفسه للهلاك مختاراً؟

فيا ترى هل رأينا إلى أى مدى كانت رحمة الله تعالى بالنساء حين أباح تعدد الزوجات؟

وإذا كان المتفرنجات يهاجمن هذا النظام فإن ذلك إنما يدل على مدى قصور نظرهن إذ يهاجمن حكماً يحقق المصلحة القصوى للنساء من حيث لا يشعرون. وإذا كان ظاهر هذا الحكم يوحي لدى مريضات النفوس إنه يلحق ضرراً بالزوجات فإن الحقيقة عكس ذلك تماماً، حيث يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (1)، كما أنه لا يتصور مطلقاً لدى المؤمنين عامة أن يشرع الله لعباده ما فيه ضرراً بهم.

أليس عجيباً بعد هذا كله أن ننظر إلى من يتزوج على امرأته نظرة استهجان واستنكار وكأنه قد أتى أمراً إذا تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر له الجبال هدا.

أليس عجيباً أن ننظر إلى من يتزوج على امرأته نظرة تعجب ودهشة وكأنه مخلوق عجيب وفد إلينا من عالم آخر.

أليس عجيباً أن تكون نظرتنا لمن يتزوج على امرأته أبشع بكثير من نظرتنا للزاني، وكأن الحلال قد غدا عندنا حراماً وأصبح الحرام

(1) الآية 216 من سورة البقرة.

حلالاً.

* * *